مُقَدِّمَة

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، من أكرم الناس ، قال : « **أتقاكم** » ، قال : ليس عن هذا أسألك ، قال ﷺ : « **فعن معادن الناس تسألونني ؟ ، خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا** » صدق رسول الله ﷺ .

وإن كان الله عز وجل قد حكم بأن الأكرم هو الأتقى ولو كان ابن ذنجيه ، وإن العاصي محطوط الدرجة ولو كان ابن نبيين .

وإن تعارف الناس بأنسابهم هو غرضًا لله في خلقه ، فوجب بذلك أن يكون علم النسب علمًا جليلاً ، إذ به يكون التعارف بين الناس وارجاع الفروع إلى الأصول .

قال رسول الله ﷺ : « **تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم محبة في الأهل ، مشتراه في المال ، منسأة في الأجل ، مرضاة للرب** » . صدق رسول الله ﷺ .

ولله سبحانه وتعالى في خلقه شئون ولعظيم قدرته آيات ولمواقيته حكمه ، فقد خلق سبحانه وتعالى آدم في يوم جمعة ، ثم نفخ فيه من روحه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيمًا لقدره وسموًا لمكانته ، وفي ذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مصيحة في يوم الجمعة حين تصبح وحتى تطلع الشمس شفقًا من الساعة ، إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي ويسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه ، وعلَّم الله آدم الأسماء كلها ، وأسكنه الجنَّة ، وخلق**

حواء من نفس آدم ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ .

[البقرة : ٣٥] .

فقد حذر الله سبحانه وتعالى آدم من إبليس ، فقال تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) ﴾ [طه : ١١٧-١١٩] .

ولكن إبليس ـ لعنه الله ـ عز عليه ذلك وبلغ منه الحقد مبلغه وأصر على أن يتسبب في إخراجه من نعيم الجنة الذي يتمتع به آدم وزوجه ، فأتاهما في ثوب الصادق المحب ، وحدثهما حديث الناصح الأمين ، قال : ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) ﴾ [طه : ١٢٠] ، وقال لهما : ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] ، ففتنهما الشيطان وأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها ، وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه : ١١٥] .

فأخرجهما الله من الجنَّة وأسكنهما الأرض يتكبدان آلام الحياة عقابًا لهما ، ثم غفر لهما بمنه وكرمه سبحانه وتعالى .

قال صاحب سبائك الذهب : ولد لآدم أربعون ولدًا في عشرين بطنًا ،

وقال العيني : ولد لآدم ثلاثة أولاد ، قين وقابيل وهابيل ، وبعد أن قتل قابيل أخيه هابيل ، ولد لآدم شيث وإليه يرجع العبرثيون نسبهم ، وصار لشيث بنون وعائلات عديدة، ولما توفي آدم عليه السلام وقال شيث لجبريل عليه السلام صلي عليه ، فقال جبريل عليه السلام : تقدم أنت وصلي على أبيك ، فتقدم وكبَّر عليه ثلاثون تكبيرة .

وقال صاحب سبائك الذهب :

لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا ، أما المكان الذي دُفِنَ فيه آدم عليه السلام فيقال أنه غار يدعى غار الكبير في جبل أبي قبيس ، وقد ماتت حواء بعده بسنة واحدة ، ودفنت في نفس الغار إلى وقت الطوفان حتى استخرجهما نبي الله نوح عليه السلام وجعلهما في تابوت ثم حملها معه في السفينة ، وبعد الطوفان أعادهما إلى نفس الغار .

وبعد أن أورد البغدادي نفس هذا القول قال : إنها دفنت في جده ، وقد كان نوح عليه السلام النسل الثامن من ذرية شيث بن آدم ـ عليهما السلام ـ ، وقد تمسكت عائلته بعبادة الله سبحانه وتعالى ما عدا ابنه الذي ذكره الله في كتابه العزيز بقوله تعالى : ﴿ **وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ** ﴾ [هود : ٤٣] .

ولم ينجو من الطوفان مع نبي الله نوح إلا من تمسك بعبادة الله عز وجل ، أما من ضل عن السبيل وانشغل عن طاعة الله وسلك طريق الرذيلة والفجور ، واتبع طريق الحائرين الضالين ، فكان جزاءه أن صار من المغرقين .

وقيل أن نوح عليه السلام لما نزل إلى الأرض بعد الطوفان قام ببناء قرية أسماها قرية الثمانين ، وذلك على عدد اللذين خرجوا من السفينة وهي الأن تسمى سوق الثمانين .

وهكذا أخذ نسل آدم عليه السلام ينتشر في الأرض ، فقد هيأ الله سبحانه وتعالى لعباده كل مقومات الحياة وسُبل العيش على كل جزء من أجزاء المعمورة ، فلو تأملنا خلق الله المعجز والغاية في الدقة والنظام ، لكان لزامًا علينا أن نتيقن أن الحق تبارك وتعالى لم يخلق شيئًا عبثا ولم يحرم عباده وفير العطاء والهدى ، لذا كان حقًا علينا ألا نترك سُدى ، وأن نتلمس في سبيلنا طريق الخير والرشاد .

وهذه البسيطة بسهولها وبحارها وأنهارها ووديانها وجبالها ، وما عليها وما

بها من خيرات ، إنما قد سخرها الله سبحانه وتعالى لحياة الإنسان ومعيشته ، فما أعظمها من قدرة وما أكثرها من نِعم .

وخلاصة القول ومجمله :

أنه ومنذ أن خلق آدم عليه السلام أخذ بني آدم ينتشرون في الأرض ويأكلون مما تنبت وكان لكل مكان وزمان عاداته وتقاليده ، وظل الإنسان يتكاثر وينتشر حتى وقتنا هذا ، وذلك غرضا للحق سبحانه وتعالى في خلقه .

فالجميع من نسل آدم عليه السلام الذي أُهبط إلى الأرض ليتناسل ولده وليكثر نوعه ، وذلك إعماراً للكون وانتشاراً لبني آدم .

وبالرغم من اتساع رقعة الأرض التي نعيش عليها ، وبالرغم من اختلاف المكان والزمان والعادات والتقاليد وسواء كان الإنسان يعيش في جزيرة تزمانيا في الشرق الأقصى بجنوب شرق استراليا،أو يعيش في الغرب الأقصى بشمال كندا ، فلا شك أن الجميع من نسل آدم عليه السلام ، « **كلكم لآدم ، وآدم من تراب** » .

فلو تأملنا في خلق الله سبحانه وتعالى لعباده من بني الإنسان لأدركنا عظمة الحق تبارك وتعالى وقدرته اللا محدودة ، فهو على كل شيء قدير ، ولو أمعنا النظر والتأمل في كوكب الأرض الذي نعيش عليه لوجدنا أن كل بقعة من بقاع المعمورة تتميز بنمط حياتي معين ، بل ويميزها عن غيرها من البقاع الأخرى مع أن الجميع يعيشون في كوكب واحد ، وبالرغم من ذلك نقرأ ونسمع ونشاهد كل يوم عن عجائب وغرائب وأشياء وعادات مثيرة ومؤثرة .

ومن بديع صنع الله سبحانه وتعالى أن لكل بقعة من بقاع الأرض ، ولكل شعب من شعوبها أسلوب حياتي معين وسمات وأشكال معينة ، وعادات وتقاليد خاصة ، اكتسبها الإنسان من الظروف والبيئة التي يعيش فيها ، فيتأثر بها ويؤثر فيها سلباً أو إيجاباً .

فالإنسان الذي يعيش في الأرض الخصبة وبجوار الأنهار والمنحدرات المائية ، فهو لا شك أكثر حظًا من ذلك الذي يعيش في المناطق القطبية ، كالإسكيمو مثلاً .

فالأول قد جادت عليه الطبيعة بما يشتهي ، أما الثاني فهو في صراع دائم مع الطبيعة ، باحثًا عن الطعام ومقاومًا لمناخها القاس ، فأقصى أمانيه في تلك الطبيعة القاسية هو صيد الأسماك أو أحد الحيوانات القطبية ، التي يتغذى عليها أو يستخدمها كوسيلة للمواصلات .

وخلاصة ذلك :

أنه على كل جزء من أجزاء الأرض الزاخرة بنعم الحياة أسلوب ونمط حياتي معين ، وظروف بيئية ومناخية تنعكس على أولئك الذين يعيشون على كل جزء من أجزاءها .

فاليابانيون مثلاً ، لهم عادات وتقاليد اجتماعية يختص بها الشعب الياباني وحده ، فالمصافحة باليد مثلاً والعناق غير موجودة عند اليابانين ، لأن المصافحة عندهم فقط بالانحناء قليلاً ، وهو نوع من أنواع التحية حتى ولو كان المتصافحين لم يلتقيا منذ عشرات السنين ، وكذلك في الهند فالتحيةشكل مميز عن تلك التي ألفناها في بعض الدول الشرقية ، ومنها مصر ، وكذلك في السودان ، فاخواننا في السودان طريقة خاصة في المصافحة ، وعندنا في جمهورية مصر العربية أيضًا لابد أن تكون المصافحة باليد والأحضان والعُبط واذيك بجا .

ومن الغريب أيضًا في اليابان وبعض دول شرق أسيا الطريقة في تناول بعض الأطعمة ، كالأرز مثلاً ، فمن المعروف عن الشعب الياباني أنه يلتهم كميات كبيرة من الأرز ، والغريب أنه يتناولها بالعصى ، فنحن في مصر مثلاً نستخدم الملعقة لذلك ، وهم هناك في اليابان يستخدمون العصى .

فتخيل يا عزيزي أنك دعيت ذات يوم من قِبل صديق لك من اليابان على وجبة غذاء يابانية ، وكانت عبارة عن أرز قد تم طهيه بأكثر من طريقة ، وبدلاً من أن توضع أمامك معلقة وضعت أمامك العصى واتفضل كل يا بطل وورينا الهمة .

وفي بعض دول شرق آسيا وأوروبا يأكلون لحوم الخيول ويعتبرونها من أشهى اللحوم ، ونحن في البلاد العربية والإسلامية وكثير من بلاد العالم لا نقدم على ذلك ، فنحن لم نتخيل على الإطلاق أن تنظر إلى الحصان على أن يكون لحمه وجبة رائعة ، لأن الحصان لا يعني لنا إلا أنه حيوان جميل ورقيق ، وأن اقتنائه يعتبر نوعًا من أنواع الزينة والشياكة ، ونحن على حق في ذلك ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴿٨﴾ ﴾ .

[النحل : ٨] .

وفي دولة مثل الفلبيين مثلاً يأكلون لحم الكلاب ، ونحن في مصر ومعظم دول العالم لا ننظر إلى الكب إلا على أنه حارس أمين .

وكذلك في بلاد إفريقيا تلك القارة السوداء والتي تذخر بالعادات والتقاليد وذلك لكونها عبارة عن قبائل عديدة ، لذا فإن العادات والتقاليد في القارة الإفريقية تتعدد بتعدد القبائل ، ففي بعض البلاد الإفريقية مثلاً نجد أن هناك من يأكلون لحم القرود ، بل ويعتبرونها من أشهى الأطعمة ، ويقيمون لها الولائم الفاخرة ، ولا يستخدمون الألة الحادة في ذبحها ، بل يقتلونها صعقًا بالكهرباء حتى تموت ، فإذا ماتت صارت لحمًا بطعم القرود ، فتخيل يا عزيزي حلاوة لحم القرود على الملوخية ، أو مدى القيمة العالية للشوربة الخاصة بها ، تخيل فقط لن تخسر شيئًا .

كل ذلك يحدث في بعض البلاد الإفريقية ، ونحن هنا في مصر والحمد لله

وجميع بلاد الوطن العربي تتشائم من مجرد رؤية القرود . . . .

وفي إفريقيا أيضًا وفي دولة مثل الكنغو نجد أن النساء يضعن ما يشبه الحلق في الأنف بدلاً من الأذن ويعتبرنها نوعًا من أنواع الحلي .

ويقول جون ايلدرد في زيارته إلى بابل عام ١٥٨٣ وهو يصف أهل بابل في ذلك الحين : أن النساء في بابل عامة يرتدين في فتحة من أنوفهن خاتمًا كخاتم الزواج ، وإن كان أكبر قليلاً مثبت به لؤلؤة أو حجر كريم ، ويفعلن ذلك مهما كن فقيرات .

والغريب والعجيب أن المرأة البدوية كانت ولا زالت في بعض المناطق تفعل نفس الأمر وترتدي ما يشبه الحلق في أنفها ، وهو ما يسمى عند عرب البادية « الشناف » والرائع أيضًا أن المرأة بالكنغو ومثيلتها في بابل القديمة والبدوية في مصر جميعن يعتبرن هذا الأمر نوعًا من أنواع الحلي الذي تتجمل به المرأة ، وذلك بالرغم من أن البدوية المصرية لم ترى ولم تعرف ولم تراسل ولم تشاهد الافريقية أو البابلية القديمة ، ولم يصل إلى علمها ذلك بأي وسيلة من وسائل المعرفة ، ولم تشاهد عرضًا للحلي على شاشات التليفزيون ، وذلك لسبب بسيط جدًا ، هو أنه لم يكن هناك لا تلفزيون ولا حتى فيشة في ذلك الوقت .

ويقول جان بابتست عن عادة قديمة بين عبدة الأوثان بالهند :

أنه حين يموت الرجل لا تستطيع أرملته أن تتزوج مرة أخرى أبدًا ، وبمجرد أن يموت تتفرغ للبكاء على زوجها ، وبعد عدة أيام يقصون لها شعرها وتجرد نفسها من كل الحلي التي كانت تتزين بها وتقوم بخلع الأساور التي وهبها لها زوجها عندما تزوجها ، وذلك كعلامة على تسليمها له وتبقي حياتها دون أن اعتبار بل وأسوأ من حالة العبيد في حين كانت من قبل السيدة وهذه الحالة تجعلها تكره الحياة وتفضل الذهاب لمحرقة الجنازة كي تموت حية مع جثة زوجها الميت .

ففي مملكة جوجارات يقول جان بابتست : يتم جمع الحطب ويتم إعداد كومة حرق تشبه السرير بوسادة من البوص والحطب الصغير ومعها توضع قدور الزيت والسوائل الأخرى للمساعدة في إحراق الجسد بسرعة وتتقدم الطبول والمزامير تلك المرأة الضحية ومزينة بأبهى جواهرها تأتي وهي ترقص نحو كومة الأحراق وتصعد فوقها وتأخذ وضع نصف الجلوس والركوع وتوضع جثة زوجها على ركبتيها ، ويقوم أصدقاءها وأقاربها بإحضار أشياءهم لها فأحدهم يعطيها خطابًا ، والآخر يعطيها قطعة من القماش ، والثالث زهورًا ، والرابع قطعًا من الفضة أو النحاس طالبين منها أن تسلم هذه الأشياء لأقاربهم من الموتى .

وعندما ترى المرأة أن الموجودين لا يقدمون لها المزيد تسألهم إذا ما كان لديهم أي تكليفات أخرى ، وتكرر ذلك ثلاث مرات ، وإذا لم يجيبونها تقوم بلف كل ما أحضروه في قماش حريري وتضعه بين وسطها وبين ظهر جثة زوجها الميت منادية الرهبان لإشعال النار في كومة الاحراق ، فيقوم البراهمة والأقارب معًا بذلك حتى تتحول الجثث إلى رماد .

وهناك أيضًا عادة شريرة يمارسها الوثنيون أيضًا في مملكة البنغال ، إذ عندما تضع المرأة طفلاً ويعزف الوليد عن الرضاعة أو يمتنع عنها ـ من صدر أمه ـ يحملونه خارج القرية ويضعونه في قطعة من القماش تربط من أركانها الأربعة في أفرع الشجرة ويترك فيها الوليد هكذا من الصباح وحتى المساء ، وفي هذا الوضع يتعرض الطفل المسكين للغربان التي تنهش جسده الضعيف .

وقد وجد بعضهم مفقوئي الأعين ، ويقول جان بابتست : أن هذا هو السبب في أننا نرى العديد من الوثنيون بالبنغال ليس لهم سوى عين واحدة ، والبعض الآخر الذي جرحت أعينهم أو تم فقدها ، وفي المساء يوخذ الطفل لاختباره ، فإذا رغب في الرضاعة كان آمنًا ، وإلا أعيد إلى حيث الغربان وهوام

الليل والنهار .

غريب ذلك العالم الذي نعيش فيه ، وعجيب أمره وجل غرابته وعظيم عجائبه يكمن في التنوع المحير أحيانًا ، والذي يدعو إلى الشفقة أحيانًا أخرى لعاداته وتقاليده .

وفي البلاد الأوروبية أو ما نسميه نحن الشرقيون بلاد الغرب ، هناك ذبحت التقاليد والعادات ، وأصبح الجميع يعيشون على النظريات الفلسفية والشعارات التحررية ، والتي اختلط في ظلها الحابل بالنابل وأصبح النساء والفتيات فيها كالرجال في كل شيء ، لا مقياس ولا رقابة ولا ضبط ولا ربط ، فليس هناك ما يسمى حرام أو غير مباح .

فالمرأة هناك تعرت تمامًا ، وأصبحت سلعة تباع وتشترى ، وأصبح جسدها أرخص من الملح في جمهورية مصر العربية ، وأصبح الناس هناك يعبدون النظريات ويستخدمونها أسواء استخدام ، وأصبح الجميع يلهب وراء المتعة والرذيلة ، لا تمنعه عنها عقيدة ولا ترجعه عنها عادات أو تقاليد ، ولا ترده خيفة أو صلة رحم ، ونظرية « إذا استطعت الحصول على اللبن فليس من الضروري أن تقتني البقرة » ، هذه النظرية استخدمونها أسوأ استخدام فتجد أن شبابهم وفتياتهم يعيشون سويًا في فراش واحد يمارسون حياة الأزواج وهم ليسوا بأزواج ، وينجبون الأطفال وعلى عينك يا تاجر .

وكل ذلك بالنسبة لهم شيء عادي ، بل أن الإبنة تعاشر صديقها في منزل والدها على الرحب والسعة .

ويحضرني في ذلك أن أحد الأصدقاء كان يعيش لفترة طويلة في إحدى الدول الغربية ، وأقسم لي أن شقيقان كاد أن يقتل أحدهما الآخر على فتاة تحمل في بطنها طفلاً وكل منهما يدعي أنه طفله هو ، وذلك لكثرة معاشرة كل منهما

لهذه الفتاة .

فأي تحطيم للقيم هذا ، وأي قلب للموازين وانحطاط للأخلاق ، ذلك الذي نسمعه ونشاهده عن أولئك الذين يدعون التقدم والتطور ، اللهم إن كان هذا هو التقدم والتطور والحرية ، فلا تكتبها لعبيدك المسلمين الطاهرين الشرفاء .

وفي دولة مثل السويد مثلاً ، الفتيات لا يقبلن على الزواج قبل سن الثلاثين وذلك حتى تستمتع الفتاة بالفراش وبالمراهقين .

ناهيك عن زنا المحارم في معظم دول الغرب ، الولد مع أمه ، والأخ مع أخته ، والخال مع ابنة شقيقته ، وهكذا فقد دلت إحصائية أن حوالي ٤٪ من الأمريكيين يمارسون زنا المحارم .

ولكن كل ذلك ممنوع ومحذور عندنا نحن الشرقيون ، وترفضه كل قطرة من دماءنا وتقشعر لسماعه أبداننا ، وتثور له رجولتنا وتأباه معتقداتنا وعاداتنا وتقاليدنا ، ومجمل ذاك أنه وبالرغم من أن الجميع من نسل آدم عليه السلام ، والجميع يعيشون على كوكب واحد ويتنفسون نفس الهواء ويظلهم سماء واحدة ، وتطل عليهم شمس واحدة ، إلا أنه عالم ذاخر بالتنوع في العادات والتقاليد وأن لكل جزء من أجزاء الأرض تقاليد وعادات ومعتقدات تميز شعبه عن غيره من الشعوب ليس ذلك فحسب بل أنه لكل دولة من الدول سمات وتقاليد وعادات معينة قد لا تجدها في دولة أخرى وقد تكون تلك الدولة جارتها .

فمثلاً في وطننا العربي الكبير وبالرغم مما يتمع به من مقومات تجعله ـ أو من المفروض أن تجعله ـ أشد التحامًا وأكثر ترابطًا مثل الدين الإسلامي والقومية العربية واللغة والجوار ووحدة الظروف البيئية والمناخية .

ولو أخذنا في الاعتبار إحدى هذه المقومات مثل اللغة العربية لوجدنا أن الوطن العربي من المحيط إلى الخليج يتحدث لغة واحدة وهي اللغة العربية ومع

ذلك فإننا نجد في الوطن العربي العديد من اللهجات كثيرة ومختلفة فمثلاً اللهجة التي يتحدث بها إخواننا المغاربة في المملكة المغربية تختلف ولو بشكل بسيط عن تلك التي يتحدث بها اخواننا في الجمهورية الجزائرية ، وكذلك التونسية والجماهيرية الليبية وكلها تختلف عن اللهجة التي يتحدث بها أهالي وادي النيل وكذلك عن اللهجة التي يتحدث بها إخواننا في منطقة الخليج العربي فبالرغم من أن الوطن العربي وطن واحد وذو صبغة واحدة ويتحث اللغة العربية الأم لغة واحدة إلا أن لكل دولة عربية لهجة معينة تميزها عن غيرها من اللهجات فإذا تحدث إليك مواطن من دولة عربية معينة عرفت وللوهلة الأولى لأي دولة ينتمي ذلك المتحدث ، وذلك من خلال تعرفك على اللهجة التي يتحدث بها .

فمثلاً لو قلت : « نريد أن نقرأ هذا الكتاب » .

فإذا استخدمت في ذلك اللغة العربية الأم فلا خلاف حول ذلك ، ولكن إذا استخدمت لذلك اللهجات فهنا يظهر تميز واختلاف كل لهجة عن غيرها .

- فالمواطن المصري مثلاً يقول هكذا : « عايز اءرأ الكتاب ده » .
- وفي الشام في لبنان أو سوريا مثلاً يقول هكذا: «بدنا نأرا الكتاب هيدا ».
- أما في السودان فتقال هكذا : « اهنا أوزين نوجروا الكيتاب داهوو » .
- وفي شبه الجزيرة العربية تقال هكذا : « نبغي تقرأ الكتاب هاضا » .
- وفي الجماهيرية الليبية تقال هكذا : « نبوا تقروا الكتاب هاضا » .

وهكذا تختلف اللهجات باختلاف الدول العربية وبالرغم من أن الجميع يتحدث اللغة العربية .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنه وفي الدولة الواحدة لهجات عديدة أيضًا ، وعادات وتقاليد مختلفة ، وذلك بالرغم من أن الجميع يعيشون في دولة واحدة وإقليم واحد ويخضعون لنفس القوانين والتشريعات ، فمثلاً في جمهورية

مصر العربية نجد أن هناك اختلاف في اللهجات بين أبناء الشعب المصري وإن قل هذا الاختلاف .

فإخواننا في صعيد مصر لهم لهجة معينة ، فإذا تحدث إليك مواطن من صعيد مصر فيكون من السهل عليك أن تعرف أنه من أبناء الصعيد ، وكذلك فإن لأهالي الريف المصري لهجة خاصة أيضًا وكذلك الدمياطي والنوبي والبورسعيدي والفيومي .

وأيضًا لأهالي مرسي مطروح من أبناء البادية لهجة خاصة ، بل ومتميزة عن أي لهجة في الوطن العربي يأثره وهو موضوع هذا الكتاب ، فالعرب البادية في مختلف أنحاء جمهورية مصر العربية عادات وتقاليد ، وكذلك لهجة بدوية معينة ينفرد بها البدوي عن غيره على مستوى الوطن العربي .

فالعادات البدوية عادات أصيلة وعريقة ، وأن البدوي شديد التمسك بهذه العادات التي والدت معه ولا زالت تلازمه طالما كانت الحياة .

واحسبني لا أبالغ إذ قلت : أن تلك العادات البدوية هي الأصالة بعينها ، وقد تبدو هذه العادات والتقاليد من الغرائب لأول وهلة وأرى أن غرابتها تكمن في جهل غير البدوي بها ، وكذلك فإن اللهجة البدوية السليمة والصحيحة لا يمكن لغير البدوي أن يتحدثها وهو أمر لا يمكن أن يختلف عليه اثنان ، وهذا بلا شك يتضح لنا في مدى الفشل الزريع لبعض الأعمال السينمائية أو التليفزيونية من أفلام ومسلسلات وخلافه ، والتي يحاول فيها القائمين على هذه الأعمال التعبير عن الحياة البدوية .

وأقول بمنتهى الأمانة وأسجل مسئوليتي عن ذلك :

أن أي عمل من هذه الأعمال كان أو سيكون لن يكون مصيره سوى الفشل الزريع ، ذلك لأن العادات البدوية لا يمكن أن يعبر عنها إلا البدوي نفسه

واللهجة البدوية لا يمكن أن يتحدثها سوى البدوي حتى ولو كان حاصلاً على درجة الدكتوراة في مجال الانثربولوجي لأن الدراسات المكتبية والأكاديمية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحدث عن الحياة البدوية كما وأن أساتذة الانتربولوجي بل ومن منحوهم شهادات الدكتوراة في هذا المجال ، وكذلك المراجع والمؤلفات التي يستقون منها ثقافتهم في هذا المجال ، لم ولن بل ويستحيل عليها أن تتوصل إلى فهم الواقع البدوي الفهم الصحيح ، لأنها مجرد دراسة نظرية وسمعية ليس لها أي علاقة بالواقع البدوي ، ليس ذلك فحسب ، بل أننا قد نجد أن واضعي المراجع لم يطلعوا على الحياة البدوية لا من قريب ولا من بعيد ، ولم يعرفوا عنها سوى تلك المؤلفات التي تعودوا على قرائتها وبنوا ثقافتهم عليها ، ولا يهمه بعد ذلك إن كانت مستقاه فعلاً من واقع الحياة البدوية أم لا ، بل والطريف أيضًا أن غير البدوي حتى لو اطلع على العادات البدوية وحاول أعوامًا عديدة أن يتعلم اللهجة البدوية فإنه لن يفلح في ذلك وهو أمر غاية في الغرابة والدهشة ، فمن يريد أن يتعلم إحدى اللغات كالإنجليزية أو الفرنسية مثلاً ، فقد يتعلم ذلك في غضون فترة من الزمن ، أما غير البدوي يستحيل عليه تعلم اللهجة البدوية والإلمام بها ولو ظل على ذلك مئة عام ، وهذا الأمر ليس فيه أي زيادة أو مبالغة .

عزيزي القارئ :

أرجو أن تغفر لي استغراقي في هذه المقدمة ، فما قصدت من ذلك إلا أن أجعلك مهيأ تمامًا لاستيعاب هذا المؤلف الصغير ، فهيا معي لنتعرف بالفعل على الحياة البدوية عن قرب ، تعالى معي لكي نسبح في خضم العادات البدوية الأصيلة ونتبعها أينما كانت ، فقد نذهب إلى الصحراء أو الوادي أو فوق سفوح الجبال ، وربما يكون ذلك في الشتاء القارص أو في فصل الصيف شديد الحرارة ، وربما اسبح بك في أعماق التاريخ لمئات من السنين ولكنني أيضًا قد أعود بك

إلى مدينة ساحرة ، قد تكون تلك المدينة مرسي مطروح أو الاسكندرية ، أو ربما باريس .

فنحن لا يعنينا المكان بقدر ما يعنينا تعقب البدوي أينما يعيش لنتعرف على عاداته وتقاليده ، لنؤكد أن المكان والزمان مهما اختلفا أو تغيرا فإن يد الحدثان لا تنال من عادات البدوي وتقاليده فهو غاية في الحرص عليها شديد التصدي لما يمس ما قد تعود عليه وألفه وسواء كان ذلك البدوي يعيش في بيت من الشعر « بيت الربيع - بيت العرب » سواء كان يعيش في بيت من الشعر تحيط به الأغنام والماعز والإبل ، أو يعيش في ڤيلا فاخرة تحيط بها الأشجار والورود وسواءًا كان ذلك البدوي راعي أغنام أو شخصية قيادية مرموقة ، فالإثنان أشد التزامًا وأكثر حرصًا على العادات والتقاليد البدوية .

واحسبني إنني لست مبالغًا إذا قلت أن الله سبحانه وتعالى قد وهب البدوي ذكاءًا فطريًا غريبًا فهو سريع التأقلم مع ما يحيط به وذو بديهة حاضرة ، فلو تخيلنا مثلاً أن هناك بدويًا يعيش في صحراء بعيدة ، ولم تصل إليها يد الحداثة بعد ولا يعرف من الحياة سوى الأمطار التي تنهمر في فصل الشتاء ، فتملأ أباره وتروي زراعته ويشرب وتشرب منها أغنامه وإبله ، ولا يعرف زيادة عن قطعان الإبل والأغنام يشرب ألبانها ويأكل من لحومها ويشتري ويبتاع من خلالها ، ومع ذلك فهو صاحب الذكاء الفطري الغريب ، فهو قد لا يحمل الساعة ليتعرف على الوقت من خلالها ، ولكنه يصلي بواسطة قياس الظل ، ويتنبأ بالمطر من خلال السحاب ، ويعرف الإمساك عن الطعام في شهر رمضان من خلال النجوم ، ويعرف اتجاه الرياح بواسطة حفنة من الرمال ، يرفعها بيده ويتركها في الهواء فإن اتجهت جنوبًا كانت شمالية ، وإن اتجهت غربًا كان الرياح شرقية ، وهكذا .

هذا البدوي الذي يعيش في هذه الصحراء القاحلة والقاسية ، إذا ما شاءت الظروف وساقته أقدامه إلى المدينة بسحرها وزحامها وشوارعها الصاخة التي لم يتعود عليها ، ورأى ما لم يألفه وسمع ما لم يسمعه ، فليس من السهل عليك أن تبيعه الطرماي أو أحد قطارات السكة الحديد ، فهو ذكي بالفطرة بالرغم من أنه لم يرى المدينة قبل ذلك .

وبما خلص وبما سنخلص إليه أدعوك يا عزيزي لزيارة الواقع البدوي عن قرب بلا مبالغة أو تحيز ، فقد تستغرق هذه الزيارة بعض القوت فأتمنى أن تكون زيارة مفيدة وشيقة ، فأهلاً وسهلاً بك أو على حد تعبير البدوي : مرحبتين . . .